صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر

د. ناصر الدين سعيدوني
أستاذ بجامعة الجزائر

ارتبط الوجود الأندلسي بالجزائر بفترتين أساسيتين، تميزت كل منهما بقدوم أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى البلاد الجزائرية (المغرب الأوسط)، الأولى كان أغلب أفرادها من ذوي العلم والمكانة الاجتماعية، بدأت مع انهيار حكم المرابطين (539 هـ/1145 م)، وبلغت أوجها مع انقسام دولة الموحدين (628 هـ/1230 م)، وحكم الحفصيين لشرق الجزائر من بجاية، وسيطرة الزيانيين على وسط وغرب الجزائر من عاصمتهم تلمسان (633-961 هـ/ 1236-1554 م)، والفترة الثانية للوجود الأندلسي كان ل أفرادها من الفلاحين والصناع والتجار، ارتبطت بنهاية الحفصيين والزيانيين واستقرار الحكم العثماني بالجزائر (924-1246 هـ/1518-1830 م)، وفي كلتا المرحلتين ارتبط التوافد الأندلسي إلى الجزائر بأوضاع خاصة كانت تعيشها الأندلس وظروف محلية كانت تمر بها الجزائر، كما أن لكل مرحلة طابعها الخاص المميز من حيث نوعية المهاجرين والنشاط الذي عرفوا به والآثار التي ترتبت على وجودهم من حيث التوزيع الجغرافي والبنية الاجتماعية والواقع الاقتصادي والاسهام الثقافي والفكري، وهذا ما نحاول التعرض له من خلال تقديم صورة متكاملة للهجرة الأندلسية إلى الجزائر في مرحلتيها الأولى التي طبعت العهد الحفصي والزياني، والثانية التي ارتبطت بالفترة العثمانية.

أ ـ المرحلة الأولى للهجرة الأندلسية إلى الجزائر (المغرب الأوسط) :

مهدت لهذه المرحلة الأولى العلاقات التي كانت قائمة بين الحكم الاسلامي بالأندلس على عهد الولاة (95-138 هـ/711-755 م) وخلافة قرطبة الأموية (138-422 هـ/ 755-1031 م) وملوك الطوائف الذين أقتسموا البلاد الأندلسية (422-484 هـ/ 1031-1091 م)، وبين الحكم الاسلامي بالجزائر على عهد ولاة القيروان (122-157 هـ/ 740-774 م) وأمراء الأغالبة بالقيروان (148-296/800-909 م)، وأئمة الرستميين بتاهرت (160-289 هـ/776-911 م) والحكام العبيديين (الفاطميين) بالمهدية (262-296 هـ/910-973 م) وخلفائهم الزيريين (361-566 هـ/972-1171 م)

والحماديين (405-547 هـ/1014-1153 م). فقد كانت الاتصالات قائمة بين بلاد الأندلس والمغرب الأوسط، تمثلت في انتقال الطلبة والعلماء والتجار والبحارة بين العدوتين لطلب العلم والتدريس أو الاطلاع، وممارسة التجارة أو الاشتغال بالصيد على السواحل، وقد شجع على ذلك وجود قبائل بربرية وعشائر عربية ذات أصل مشترك بالبلدين : الأندلس والجزائر، مثل آل زيري الذين حكموا بأشير وكان لهم ملك بغرناطة. كل هذا زاد في الترابط البشري والتفاعل الحضاري بين مدن الجزائر الاسلامية (تاهرت، وورجلان، وطبنة، وباغاي، والمسيلة، وأشير، وقلعة بني حماد، وسوق حمزة، وبجاية، وقسنطينة، ومليانة، والجزائر، وتلمسان، وتنس، ووهران) وحواضر الأندلس الكبرى (قرطبة، واشبيلية، ومدينة سالم، وطليطلة، ومالقة، وغرناطة، وجيان، وألمرية، ومرسية، وبلنسية، وشاطبة، وأرسونة، ونيابلة، وتدمير وجزيرة شقرا).

وقد كان هذا التواصل من القوّة بحيث لم يضعفه تناحر الحكام، فانحصر العداء الفاطمي الأموي على محاولة استغلال الصراع العشائري التقليدي بين زناتة المشايعة للأمويين وصنهاجة المتعاملة مع الفاطميين. ولعل أحسن دليل على توثيق عرى الصلات العلمية بين البلاد الجزائرية والأندلس تلك الأعداد الكبيرة من العلماء التي كانت تنتقل بين البلدين، فقد عرف الباحث الجزائري بلقاسم درارجة في رسالته الجامعية حول التفاعل الثقافي بين المغرب الأوسط والأندلس[1] بـ 103 شخصية جزائرية انتقلت إلى الأندلس وبـ 62 عالما أندلسيا قدم إلى الجزائر في الفترة الاسلامية (من القرن الثامن إلى الرابع عشر الميلادي).

كما أن أفضل برهان على التأثير البشري الأندلسي في الجزائر يتمثل في تعمير الأندلسيين للمراكز الساحلية التي كانت مهجورة مثل آرزيو ومرسى الدجاج وبني جليدين وتنس ووهران وغيرها، فقد ذكر أبو عبد الله البكري، بأن جماعة الأندلس « الكركرني وأبي عائشة والصَّفر وصُهيب » قد عمروا تنس (262 هـ/876 م)، فأصبحت مقرا لأهالي البيرة وتدمر من أهل الأندلس، وأن جماعة الأندلسيين بزعامة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون استعانوا بالقبائل البربرية المجاورة من نفزة وبني مسفن من ازداجة وقاموا بتعمير وهران وجعلها مركزا بحريا (290 هـ/902 م)[2].

على أن هذه العلاقات القائمة والصلات المتبادلة لم تلبث أن تغيرت بفعل ضغط النصارى على مناطق الثغور الشمالية للأندلس وتقدمهم المستمر نحو الجنوب وتمكنهم من الاستيلاء على المراكز الاسلامية بشمال الأندلس مثل طليطلة (478 هـ/1085 م) وسرقسطة (512 هـ/1118 م)، ثم توسعهم على حساب ممالك الطوائف. ورغم تدخل المرابطين وانتصارهم في معركة الزلاقة (479 هـ/1086 م) ومتابعة الموحدين لجهودهم وتمكنهم من إلحاق الهزيمة بالنصارى في معركة الأرك (592 هـ/1195 م)، فإن ميزان القوى ظل في صالح المسيحيين مما أدى إلى الانهيار السريع للحكم الاسلامي بعد هزيمة الموحدين بالعقاب (Las Navas de Toloza) (609 هـ/1212 م) وسقوط الحواضر

الاسلامية الكبرى بالأندلس قرطبة (633 هـ/1236 م) وبلنسية (634 هـ/1238 م) ومرسية واشبيلية وجيان (646 هـ/1248 م)، فكان ذلك مقدمة لنهاية الحكم الاسلامي بالأندلس التي بدأت مع انقطاع السبل للدفاع عن الأندلس مع سقوط الجزيرة الخضراء وانهزام المنصور المريني في معركة طريف (771 هـ/1340 م) وانتهت بإرغام أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر بغرناطة على تسليم مفاتيح قصر الحمراء لفردناند وايزابيلا (897 هـ/1492 م).

وقد أدت هذه الأحداث المفجعة التي انتهت بضياع الأندلس إلى تحول أعداد كبيرة من أهالي الأندلس إلى بلاد المغرب، وقد وجدوا في المغرب الأوسط مكانا ملائما، فاستقرت جماعات كبيرة بالمراكز الساحلية مثل هنين، ووهران، وآرزيو، ومستغانم، وتنس، والجزائر، ودلس، وعنابة وغيرها...، وفضلت الغالبية منهم الاقامة بمدينتي بجاية وتلمسان لكونهما أكبر المراكز العمرانية التي ظلت تحتفظ بروابط وثيقة ببلاد الأندلس، فضلا عن كونهما قاعدتا المغرب الأوسط، فبجاية كانت مقر حكم الحماديين (461-547 هـ/ 1068-1153 م) ومركز سلطة الموحدين وعاصمة ثانية للحفصيين (628-943 هـ/ 1230-1536 م)، وتلمسان ظلت من الحواضر الرئيسية في عهد المرابطين والموحدين قبل أن تصبح عاصمة لدولة الزيانيين (633-961 هـ/1336-1554 م)، هذا حتى نأخذ فكرة عن التأثير الأندلسي بالمغرب الأوسط الذي تميزت به الهجرة الأندلسية الأولى، فإننا سوف نتعرض للمساهمة الأندلسية ببجاية التي نرى بها النموذج المتكامل للوجود الأندلسي بالحواضر الجزائرية، وما ترتب عنه من رقي حضاري وعطاء علمي.

بجاية الأندلسية :

كانت مقصد الأندلسيين بعد تعرضهم لاجتياح النصارى إثر هزيمة الموحدين في معركة العقاب (609 هـ/1212 م) وانحسار الحكم الاسلامي بالأندلس بفعل حركة الاسترداد المسيحية (Reconquista) التي تزعمها ملوك قشتالة والأراغون وقد ساعد على توجه الأندلسيين نحو بجاية عوامل عدة منها موقعها المتميز بالحصانة الطبيعية وبخصب التربة واعتدال المناخ، فهي أشبه ببلاد الأندلس فضلا عن كونها كانت على اتصال دائم بسواحل الأندلس، فهي مقصد السفن الآتية من مرافىء طرطوشة وبلنسية وألمرية وقرطاجنة، والمحطة الأولى للأندلسيين في انتقالهم إلى افريقيا أو توجههم نحو المشرق، هذا ومما رغب الأندلسيين في التحول إلى بجاية هو كونها مركزا حضاريا راقيا وقاعدة سلطة مركزية على عهد الحماديين والموحدين والحفصيين.

وقد ساعدت سياسة السلاطين الحفصيين الأوائل (وهم أبو زكرياء الأول 625-647 هـ/1228-1249 م، والمستنصر بالله 647-675 هـ/1249-1277 م، والواثق بالله 675-678 هـ/1277-1279 م)، وأبو إسحاق 678-682 هـ/ 1279-1283 م)، على ازدياد النفوذ الأندلسي ببجاية، فأصبح تولي الحجابة (الوزارة)

وإسناد الوظيف الاداري والقيام بالمهام الدينية والتعليمية في أغلب الأحيان من نصيب الأندلسيين وهذا ما سمح لبعض متولي الحجابة من الأندلسيين أن يستبدوا بأمور بجاية، مثل أبي العلي الأندلسي ومحمد بن محمد بن أبي بكر الاشبيلي (جد المؤرخ ابن خلدون) وابني أبي بكر بن سعيد بن سيد الناس الأندلسي وهما أحمد وأبو الحسين اللذين عملا على استيلاء أبي زكريا بن أبي إسحاق على بجاية (684 هـ/1285 م)، مما مكّن أبو الحسين خاصة من الاستفراد بحجابة بجاية نيابة عن أميره أبي زكريا، فكان حسب ابن خلدون : « أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكانا وسرّا »[3]، وبعدما توفي (690 هـ)، خلفه ابنه محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس في حجابة بجاية، ونفس الدور قام به أحد أفراد أسرة محمد بن عمر الشاطبي وهو أبو عبد الرحمن يعقوب الشاطبي ما بين سنتي 715-719 هـ/ 1315-1319 م)، وقد ظل تولي الحجابة ببجاية وإسناد المناصب الادارية بها للأندلسيين تقليدا متبعا، وهذا ما جعل أبا عبد الله الحفصي يولي حجابة بجاية في وقت لاحق للأخوين المؤرخين : يحيى ابن خلدون (765 هـ) ثم عبد الرحمن بن خلدون (766 هـ)، قبل أن يضطرا إلى ترك المنصب والتحول نحو بني مزني بالزاب بعد أن استولى أمير قسنطينة أبو العباس الحفصي على بجاية عام 767 هـ[4].

على أن هذه المكانة التي احتلها الأندلسيون في السلك الاداري والوظيف الديني والمهام التربوية ببجاية لم تكن متيسرة لولا الكفاءة التي برهنوا عليها والمستوى العلمي الذي كانوا عليه والاخلاص الذي عرفوا به والتضامن الاجتماعي الذي كان يعتمد على الاحساس بالأصل المشترك في دار هجرتهم، ولعل هذا ما جعلهم يشكلون طبقة متميزة في المجتمع البجائي في القرنين : السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) عرفت بجماعة الأندلس استطاعت أن تؤثر في سلوك عامة الناس وطريقة حياتهم وأن تنال رعاية وتقدير الحكام وهذا ما أشار إليه الغبريني في عنوان الدراسة بقوله : كان الناس (ببجاية) على اجتهاد وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد.

ومما عمل على تماسك جماعة الأندلس ببجاية وزاد من نفوذها هو التفافها حول بعض الشخصيات العلمية المرموقة التي كان لها تفوق علمي ومكانة أدبية وحظوة لدى الحكام، عرفت بمشيخة الأندلس والتي كانت الرئاسة فيها إلى أقدر العلماء وأكثرهم نفوذا وثروة مثل أبي بكر المعروف بابن محرز البلنسي (ت 685 هـ) وأبي الحسن علي بن محمد الأنصاري المعروف بابن السراج الاشبيلي (ت 657 هـ)، وأبي عبد الله محمد الكناني الشاطبي (ت 699 هـ)، وأبي عبد الله الجنان (ت 650 هـ)، وأبي بكر بن سيد الناس (ت 659 هـ)، الذين كان يجتمع إليهم علماء الأندلس للمذاكرة والمناقشة والمطارحة وتبادل الرأي والمشورة، فقد كانت دار ابن سيد الناس مثلا مكانا يتلقى منه أشهر علماء الأندلس الذين حلوا ببجاية مثل الأديب أبي المطرف بن عميرة والمؤرخ الكاتب أبي عبد الله بن الأبار وابن محرز وأبي الحسن بن أبي نصر، وأبي القاسم الولي وأبي عثمان بن حكم، وأببي عبد الله الجنان وأبي عثمان زاهر وأبي محمد بن برطلة، وابن قطول، وابن الحسين بن فتوح[6].

سمح هذا الوضع الاجتماعي المتميز للجالية الأندلسية ببجاية لجماعة علماء الأندلس، أن تقدم إسهاما فعليا وأن تكون لها مشاركة إيجابية في تطوير الثقافة العربية الاسلامية ببلاد المغرب، مما ساعد على تأصل التراث الأندلسي ببجاية وأبقى الطرق والأساليب العلمية الأندلسية حية بالمغرب الأوسط ومكّن من المحافظة على المكتبة العربية الأندلسية، بما احتوته من تصانيف في مختلف العلوم النقلية والعقلية سواء ما يتصل منها بأمور الفقه أو فنون الأدب أو المعارف الرياضية والطبية، ولعل أهم إسهام للمدرسة الأندلسية البجائية في تطوير الثقافة العربية الاسلامية ببجاية خاصة والمغرب الأوسط عامة، يتمثل في تجديد طريقة الدراسة وتطوير أساليب تلقي المعلومات وتجاوز الطريقة المغربية التقليدية المعتمدة على تحفيظ القرآن وقراءة ما تيسر في علوم الشرع وقواعد اللغة واستظهار أسانيد الأحاديث الشريفة، إلى أساليب متطورة تعتمد على البحث والتفكير وتقوم على إلقاء الأسئلة والمحاورة والمذاكرة حتى يستقيم الفهم في ذهن الطالب ويكون من المحصلين، مع الأخذ بالرواية وتتبع السند لتخريج الحديث ومناقشة الآراء لتحديد المسائل الفقهية والقضايا العقلية، فيقوم عادة أحد الطلبة بقراءة متن أحد الكتب ويتولى الأستاذ شرحه فقرة فقرة حسب غزارة علمه وسعة اطلاعه، والطلبة يقيدون ما يسترعي انتباههم في شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة، وحتى يمكن التعرف على ما تميزت به أساليب التعليم لدى علماء الأندلس ببجاية فإننا نورد ما سجله الغبريني في عنوان الدراسة حول طريقة تدريس الحديث التي كان يتبعها أبو بكر محمد بن سيد الناس العمري الاشبيلي الذي كان يستظهر عشرة آلاف حديث شريف، فقد « كان إذا قرأ الحديث يسنده إلى أن ينهى إلى النبي ﷺ ثم إذا انتهى الاسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي، فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته وحكايته إن عرفت له ثم يتلوه بالتابعي كذلك، ولا يزال يتبعهم واحدا فواحدا إلى أن ينتهي إلى شيخه فيقول أما فلان شيخنا ويذكر ما ذكر فيمن تقدم ويزيد على ذلك بأنه لقيه وقرأ عليه كذا وسمع منه كذا وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي، ولدقائقه ورقائقه والمستفادات منه كل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان... »(6).

هذا وحتى يمكن تلمس الأثر الثقافي لجمهور علماء الأندلس ببجاية وإعطاء فكرة عن طبيعة مساهمتهم في مجال المعرفة والفكر، فإننا نحاول حصر أهم الشخصيات العلمية الأندلسية حسب فروع المعرفة التي اشتهرت بها في الوسط البجائي، مع العلم بأن أغلب العلماء الأندلسيين كانوا موسوعي الثقافة، متنوعي الاختصاصات، فالعالم بالمنطق له معرفة بمسائل الفقه، والمتضلع في الفنون الأدبية له مشاركة في التاريخ، والعارف بالرياضيات ومسائل الطب له اطلاع على العلوم الشرعية، وهذا ما يجعل تصنيفهم في هذا العرض يعتمد أساسا على ما عرفوا به من اختصاصات أو اشتهروا به من تآليف حسب أصناف المعارف الاسلامية وهي العلوم العقلية النظرية من تصوف وعلم الكلام ومنطق وفلسفة والعلوم الأدبية اللغوية من أدب ونحو وشعر وتاريخ والعلوم الشرعية والمسائل الفقهية من أصول الدين

والحديث والتفسير والقراءات والعلوم الرياضية والطبيعية من حساب وفلك وهيئة وطب. فقد أمكننا اعتمادا على كتب التراجم للغبريني والمقري والحفناوي وابن فرحون وابن مريم وابن قنفذ وأحمد بابا التمبكتي(7) التعرف على خمسين عالما أندلسيا استقر نهائيا ببجاية واتخذها موطنا أو أقام بها مدة قبل أن يتحول إلى تونس أو ينتقل إلى المشرق حسب ما هو مقيد في الجدول التالي المقسم إلى أصناف الثقافة الاسلامية والمرتب حسب تاريخ وفاة العلماء :

أ ـ العلوم العقلية (التصوف وعلم الكلام والمنطق والفلسفة) :

1 ـ أبو بكر محمد بن الحسين بن أحمد الأنصاري الميروقي (ت 520 هـ/1126 م).
2 ـ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المرسي الاشبيلي (ت 543 هـ/1148 م).
3 ـ أبو علي الحسن بن علي بن محمد الميلي الاشبيلي (ت 580 هـ/1184 م).4 ـ أبو بكر محمد بن عبد الحق بن عبد الرحمن الازدي الاشبيلي المعروف بابن الخراط (ت 582 هـ/1186 م).
5 ـ أبو عبد الله محمد بن عمر القرشي (أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).
6 ـ أبو مدين شعيب بن الحسني الأنصاري الاشبيلي (ت 594 هـ/1198 م).
7 ـ أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي (ت 637 هـ/1239 م).
8 ـ أبو عبد الله محمد بن علي الطائي المُرْسي المعروف بمحيي الدين بن عربي (ت 640هـ/1242 م).
9 ـ أبو الفضل قاسم بن محمد القريشي القرطبي (662 هـ/1262 م).
10 ـ أبو الحسن علي النميري الششتري الأندلسي (ت 668 هـ/1269 م).
11 ـ أبو محمد بن الحسن بن ابراهيم بن سبعين المرسي (ت 669 هـ/1270 م).
12 ـ أبو الحسن عبد الله بن أحمد الأزدي الروندي الأندلسي (ت 691 هـ/1292 م).
13 ـ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي الأندلسي (ت 757 هـ/1356 م).

ب ـ العلوم الشرعية (الفقه والأصول والحديث والتفسير والقراءات) :

14 ـ أبو العباس أحمد بن طاهر بن رصيص الداني (ت 532 هـ/1137 م).
15 ـ أحمد بن عبد الملك الأنصاري الظاهري (ت 599 هـ/1202 م).
16 ـ أبو جعفر أحمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي (ت 582 هـ/1194 م).
17 ـ أبو محمد قاسم بن نيرة الرعيني الشاطبي الأندلسي (ت 590 هـ/1194 م).
18 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن سليمان التجيبي المرسي (ت 610 هـ/ 1213 م).
19 ـ أبو جعفر الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري الأندلسي المعروف بابن الرهبيل (أواخر القرن 6 هـ/نهاية القرن 12 م).

20 ـ محمد بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي (ت 621 هـ/1224 م).
21 ـ علي بن أحمد بن عبد الله البلنسي (ت 634 هـ/1236 م).
22 ـ أبو عثمان سعيد بن علي بن زاهر الأنصاري البلنسي (ت 654 هـ/1256 م).
23 ـ أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن السراج (ت 657 هـ/ 1259 م).
24 ـ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن اشكورنة الأزدي المرسي المعروف بابن بُرْطُلُهْ (ت 661 هـ/1263 م).
25 ـ أبو العباس أحمد بن محمد الصدفي الشاطبي (ت 674 هـ/1275 م).
26 ـ أبو زكريا يحيى اللقنتي الأندلسي (أواخر القرن 7 هـ/نهاية القرن 13 م).
27 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن الغماز الأنصاري البلنسي (ت 693 هـ/ 1264 م).
28 ـ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي (ت 699 هـ/1299 م).
29 ـ أبو عبد الله محمد بن عدي المرسي (ت 728 هـ/1228 م).
30 ـ أبو الحسن علي الشهير بالزيات (لا يعرف تاريخ وفاته).
31 ـ أبو العباس أحمد بن القريشي الغرناطي (لا يعرف تاريخ وفاته).

ج ـ الفنون الأدبية (الأدب وفنون اللغة والتاريخ) :

32 ـ الأمير عز الدولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صمادح الأندلسي (نهاية القرن 5 هـ/أواخر القرن 11 م).
33 ـ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاهبيلي الأندلسي (ت 529 هـ/ 1134 م).
34 ـ أبو العباس بن عبد الجليل التدميري الأندلسي (ت 555 هـ/1160 م).
35 ـ محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن الخدب (ت 580 هـ/ 1184 م).
36 ـ أبو ظاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني الأندلسي (ت حوالي 585 هـ/ 1189 م).
37 ـ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي الكلبي الأندلسي (ت 633 هـ/1235 م).
38 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المرسي المعروف بابن الجنان (ت 650 هـ/ 1252 م).
39 ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان البلنسي المعروف بابن محرز (ت 655 هـ/1257 م).
40 ـ أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمير المخزومي (ت 656 هـ/ 1258 م).

41 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبَّار (ت 658 هـ/ 1260 م).
42 ـ أبو الحسن علي الحضرمي الاشبيلي المعروف بابن عصفور (ت 669 هـ/1270 م).
43 ـ أبو العباس أحمد بن يوسف الفهري اللبلي الأندلسي (ت 691 هـ/1292 م).
44 ـ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي الأندلسي (ت 780 هـ/1378 م).
45 ـ أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي الأندلسي (ت 808 هـ/ 1405 م).

د ـ **المعارف الرياضية والطبيعية** (الحساب والجبر والفلك والطب والطبيعة) :

46 ـ أبو الحسن علي بن عتيق بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 598 هـ/1201 م).
47 ـ أبو العباس أحمد بن خالد المالقي (ت 660 هـ/1162 م).
48 ـ أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المرسي المعروف بابن انداراس (ت 674 هـ/ 1275 م).
49 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزري الشاطبي (ت 691 هـ/1292 م).

فبفضل هؤلاء العلماء الأندلسيين أصبحت بجاية مركز إشعاع علمي، فقد توجه إليها للدراسة وتلقي العلم أعلام من مختلف بلاد المغرب مثل : أبي إسحاق ابراهيم ابن يخلف التنسي (ت 680 هـ/1281 م)، وأبي العباس أحمد بن يحيى الغماري (ت 682 هـ/ 1283 م)، وأبي محمد عبد العزيز بن مخلوف التلمساني (ت 686 هـ/1287 م)، وأبي عبد الله محمد المغربي التلمساني (ت 759 هـ/1358 م)، وأبي عبد الله محمد ابن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت 781 هـ/1379 م)، وأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني (ت 811 هـ/1408 م)، وأبي سعيد بن تانارت الدكالي، وعبد الرحمن بن عمر اليزناسي، وأبي محمد عبد الله بن محمد الأغماتي.

وتخرج من مدارسها جيل من العلماء البجائيين، كان لهم الفضل في المحافظة على استمرار الحضارة العربية الاسلامية ببلاد المغرب نذكر منهم :

ـ الولي الصالح والفقيه العالم أبو زكريا يحيى بن يحيى الزواوي البجائي (ت 611 هـ/ 1214 م).

ـ الراوية الموثي والأصولي أبو عبد الله عبد العزيز الخشني الضرير البجائي (ت 640 هـ/1242 م).

ـ المحدث والفقيه علي بن أبي نصر بن عبد الله البجائي (ت 652 هـ/1254 م).

ـ النحوي ابن معطي الزواوي (ت 628 هـ/1231 م).

- الفقيه أبو الحسن علي بن الراوية البجائي (ت 652 هـ/1254 م).

- الفقيه أبو محمد عبد الحق بن الربيع البجائي (ت 675 هـ/1276 م).

- الفقيه المحدث أبو محمد بن كحيل البجائي (ت 685 هـ/1286 م).

- القاضي المحدث أبو العباس أحمد الغبريني (ت 704 هـ/1304 م)، صاحب كتاب عنوان الدراية، الذي ترجم فيه لمائة وسبعة عالم بجائي.

- العالم الفقيه أبو علي ناصر الدين مسعود بن منصور المشدالي البجائي (ت 731 هـ/ 1331 م).

- الفقيه الراوية أبو عبد الله محمد بن غريون البجائي (ت 731 هـ/1331 م).

- المحدث الفقيه والمفسر أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي البجائي (ت 744 هـ/ 1343 م).

- المفتي أبو علي الزواري البجائي (ت 770 هـ/1368 م).

- الفقيه القاضي أبو موسى عيسى بن ابركان البجائي (ت 753 هـ/1352 م).

- الفقيه أبو عزيز محمد بن علي البجائي (ت 747 هـ/1346 م).

- الفقيه المفتي أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليبي البجائي (ت 786 هـ/1384 م).

- الفقيه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي البجائي (ت 745 هـ/1344 م).

- الأصولي أبو علي بن حسن البجائي (ت 754 هـ/1353 م).

ب - المرحلة الثانية للهجرة الأندلسية إلى الجزائر :

ارتبطت نهاية الحكم الاسلامي بالأندلس بسقوط آخر معاقله غرناطة بني الأحمر (897 هـ/1492 م) وبانتهاج الاسبان سياسة متابعة حركة الاسترداد ببلاد المغرب وتعقب المهاجرين الأندلسيين بها، وذلك للحيلولة دون قيامهم بالجهاد البحري انتقاما لما تعرضوا له، وقد أسفرت هذه السياسة عن استيلاء الاسبان على العديد من المراكز الساحلية بالسواحل الجزائرية، فقد فرضوا سيطرتهم على المرسى الكبير (1505) ووهران (1509) ومستغانم (1511) وتلمسان (1512) وتنس (1509) والجزائر (1511) وبجاية (1510) وعنابة (1512). هذا وقد تطلبت تصفية الوجود الاسلامي باسبانيا ذاتها انتهاج سياسة التنصير الاجباري للمسلمين التي أشرفت عليها الكنيسة الكاثوليكية وتبناها الكردنال كيمناس (Cinseros Ximénés) ونفذها البغيض الاسباني، فنقض فردناند وايزابيلا العهد الذي أعطي للمسلمين مقابل تسليم غرناطة وحرمت الشعائر الاسلامية وأحرقت الكتب العربية وأغلقت

المساجد (905 هـ/1499 م) واعتبر الدين الاسلامي خطرا على اسبانيا ومنع وجود المسلمين بها (907 هـ/1501 م) وهذا ما أدى إلى انتفاضة المسلمين وقيامهم بثورة جبال البشارات Alpujarras (976-978 هـ/1568-1570 م). فقد بدأ العصيان في إقليم لانجرون وعم مملكة غرناطة وتزعم الثائرين مولاي محمد بن عبد الله من وادي الكرين المعروف بابن أمية (هرناندو دوفاردو) وفرج بن فرج من آل سراج، وطلب الثائرون العون من الجزائر وفاس، وأرسلوا السفارات إلى اسطانبول، على أن تقاعس زعيم الثورة ابن أمية وعدم تجاوب سكان حي البيازين بغرناطة ونقص العتاد وانقطاع المدد أرغم الثائرين الذين كانوا يقدرون بحوالي 25000 رجل إلى التراجع ثم التسليم أمام القوات الاسبانية المتفوقة عليهم عددا وعدة والقبول بشروط المركيز دي مندخار وخوان النمساوي القاضية بنقلهم إلى السواحل المغربية[8].

وأعقبت هذه الانتكاسة زيادة الضغط على المسلمين، فاتخذت في حقهم إجراءات قمعية رادعة مهدت لقرارات الطرد الجماعي التي أصدرها فيليب الثالث ما بين 1607-1614 م بإيعاز من الكنيسة وتشجيع من الاقطاعيين، فخصصت لهم السفن لنقلهم إلى السواحل المغربية، وقد تضمنت الوثائق الاسبانية قوائم السفن التي حملت الأندلسيين إلى وهران والمرسى الكبير باعتبارهما مركزين اسبانيين يوجه إليهما المهجرون، فقد تم ما بين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1016 هـ/1609 م نقل 116022 مسلما من مناطق شرق الأندلس (الدا ونوفيلدا وكاستيون وكولين) في ثلاثة أسفار نحو وهران عن طريق موانيء دانية وقروا وكالينانت ومونكالا، وقد ضاقت بهم وهران ونواحيها فحول قسم منهم إلى آرزيو ومستغانم، وقسم آخر إلى تلمسان وفاس، وقد استعان في ذلك الحاكم الاسباني بوهران الدون دو آغيون Duque du Aguillon بالعشائر العربية المتعاملة معه وهم أولاد موسى وأولاد عبد الله وأولاد ابراهيم، فتم نقل ما بين 5000 و 6000 إلى تلمسان و 4000 نحو مستغانم وجهاتها[9]، فتعرضت لهم القبائل البدوية في الطريق، فقتلت العديد منهم ونهبت أمتعتهم، وهذا ما أشار إليها المقري في نفح الطيب بقوله : « فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان من وهران... فسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المعرة »[10].

وقد نتج عن هذا الوضع تجنيد السكان ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر) تحت زعامة شيوخ الزوايا (المرابطين) والفقهاء في حركة جهاد واسعة النطاق أدت إلى التحاق البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية (918-924 هـ/1512-1518 م) وتحولها إلى جبهة متقدمة في صراع الدولة العثمانية للنفوذ الاسباني أثناء حكم الباي لاربايات (924-976 هـ/ 1518-1568 م)، وإلى تحولها إلى ولاية ثغور تحمى حدود الأملاك العثمانية الغربية وترد عنها هجمات الأساطيل الأوربية في عهد الباشوات (976-1069 هـ/1568-1659 م) والدايات (1082-1246 هـ/1671-1830 م). وقد ارتبط بهذه الظروف التي عاشتها

الجزائر تحول أعداد ضخمة من الأندلسيين من اسبانيا للاستقرار بالمدن والأقاليم الساحلية، فكانت أهم مراكز الاستقرار للأندلسيين بالغرب الجزائري : وهران ونواحيها ومستغانم وآرزيو وجهاتها وتلمسان وقلعة بني راشد ومازونة، وبالشرق الجزائري بجاية وجيجل وعنابة وقسنطينة، وبالوسط الجزائري ـ الذي استقطب غالبية المهاجرين ـ كانت محطات تجمع الأندلسيين تتمثل في مدن الجزاظر والبليدة والقليعة وشرشال ودلس ومليانة والمدية، وفي إقليمي متيجة والساحل القريب منها(11).

وقد كان للبحارة الأتراك بالجزائر فضل كبير في إنقاذ أعداد ضخمة من المسلمين الأندلسيين مما كانوا يقاسونه من اضطهاد النصارى، فعملوا على نقلهم إلى سواحل الجزائر، فقد أشار كتاب غزوات خير الدين إلى ذلك بقوله : « لقد جرت عادة اجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يسافرون برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل الأندلس برسم نقل جماعة المسلمين بها. فقد حمل خير الدين بربروسة في غارات متكررة على سواحل اسبانيا حسب صحب الغزوات : ما لا يقل عن سبعين ألف أندلسي إلى الجزائر »(12) وأنقذت سفن صالح رايس وايدن رايس 5100 أندلسي (1569 م) وحمل حسن فينيزيانو إلى الجزائر من نواحي أليكانت ألفي موريسكي (1543 م) وجلب درغوث رايس حوالي 600 أندلسي من أهالي بلنسية حملتهم السفن إلى الجزائر من مصب نهر أوفيلا Ovila (1569 م)(13).

كما نقل الرايس مراد في إحدى غاراته البحرية جماعات أندلسية من سواحل لورقة غرب قرطاجنة واستطاع علج علي باشا حاكم الجزائر في إطار سياسة عثمانية تهدف إلى تخفيف الضغط على مسلمي الأندلس أن يربط صلات مع مسلمي الأندلس (1567 م)، فأمد الثائرين في جبال البشارات بالمتطوعين والسلاح، فأنزل على شواطىء الأندلس بنواحي ألمرية ومربلة ما بين سنتي 1568–1569 م مئات من المتطوعين الانكشاريين وكميات من الذخائر منها 400 بندقية(14).

هذا ومما يلاحظ أن أغلب هؤلاء المرحلين الأندلسيين الذين يشكلون المرحلة الثانية للهجرة الأندلسية للجزائر، كانوا من الطبقات المتوسطة والفقيرة فجلهم من الفلاحين وأصحاب المهن والصنائع والتجار والقليل منهم من كان له حظ في العلم أو نصيب في الثقافة، وهذا عكس المرحلة الأولى للهجرة الأندلسية للجزائر التي سبقت الاشارة إليها، والتي كان يغلب عليها طابع النخبة وتتميز بكون أغلب أفرادها من العارفين بمختلف أصناف العلوم العربية الاسلامية.

هذا وكما اخترنا بالنسبة للهجرة الأولى مدينة بجاية لتكون صورة حية للهجرة الأندلسية للجزائر، فإننا سوف نأخذ مدينة الجزائر كنموذج للهجرة الأندلسية الثانية، وذلك حتى يمكن التعرف على ما تميزت به هذه الهجرة الثانية من نشاط وما عرفت به من تأثير في مختلف أوجه الحياة.

مدينة الجزائر الأندلسية :

بدأت مدينة الجزائر تكتسب أهميتها مع ضعف الزيانيين بتلمسان والحفصيين بتونس وحلول الأندلسيين بها وقيامهم بحركة الجهاد البحري ضد النصارى أثناء القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي)، وكانت قبل ذلك قرية بربرية متواضعة عرفت بجزائر بني زيري نسبة لمؤسسها الأمير الصنهاجي زيري بن مناد الذي أنشأها على أنقاض ايكوزيوم (Icosium) (339 هـ/950 م) وحافظت على عمرانها باسم جزائر بني مزغناي على عهد المرابطين الذين أسسوا مسجدها الرئيسي (الجامع الكبير 475 هـ/1082 م) والموحدين الذين اتخذوها قاعدة عسكرية في مواجهتهم لثورة بين غانية المايورقيين (580-631 هـ/1184-1233 م) وبدأت تتطور، فاتسع عمرانها على عهد الزيانيين وأصبحت مركزا إقليميا حكم منه الزيانيون مناطق متيجة، ومع انكماش سلطة الزيانيين في القرن الثامن الهجري (نهاية القرن الرابع عشر الميلادي)، استقلت بشؤونها وبقيت على صلة بعرب الثعالبة المستقرين بمتيجة وأثناء ذلك بدأت تستقبل أعدادا متزايدة من مهاجري الأندلس وتحولت إلى مركز للجهاد البحري ضد النصارى مما جعل الأندلسيين يُفضلون الاستقرار بها على بقية المراكز الساحلية الأخرى التابعة للحفصيين أو الزيانيين والتي كانت اضطرابات وفتن حالت دون توجه الأندلسيين لها.

أصبحت مدينة الجزائر محل أطماع الاسبانيين منذ أن أنشأ الأندلسيون قبالتها على إحدى الجزر الصخرية حصنا يرد الهجمات الاسبانية المباغتة وتحتمي به السفن الاسلامية بعد قيامها بغارات على السواحل المسيحية. وذلك مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد سارع القائد الإسباني بدرو نافارو (Pedro Navaro) إلى وضع حد لهذا النشاط البحري الذي عرفت به مدينة الجزائر مع نهاية القرن الخامس عشر، فاحتل البرج الأندلسي (حصن الصخرة) وحوّله إلى مركز عسكري إسباني عرف بقلعة رباط الخيل أو حصن البانيون (Penon) (1511 م)، مما اضطر سكان المدينة إلى الدخول تحت الحماية الاسبانية، فتوجه وفد منهم على رأسه شيخ المدينة سالم التومي إلى مدينة برغس (Burgos) باسبانيا حيث قدم مفاتيح الجزائر للملك الاسباني فردناندو السادس اعترافا بالتبعية له شخصيا، وبعد وفاته (أي الملك الاسباني) (1516 م) اعتبر سكان الجزائر أنفسهم في حل من التبعية التي ارتبطوا بها للعرش الاسباني وحاولوا التخلص من الوجود العسكري الاسباني بقلعة البانيون، فطلبوا العون من الأخوين بربروسة : عروج وخير الدين اللذين كانا بجيجل، وقد أدى ذلك إلى إلحاق الجائر بالدولة العثمانية (1518 م)، وحصولها على مدد من السلطان سليم الأول (ياووز)، مما مكّن خير الدين من طرد الاسبان من القلعة (1529 م) ووضع أسس عثماني مركزه مدينة الجزائر استمر أكثر من ثلاثة قرون وكان أساس تشكل الكيان السياسي للجزائر وظهور الدولة الجزائرية الحديثة.

ارتبط استقرار الحكم العثماني بالجزائر بتوافد أعداد كبيرة من مهاجري الأندلس طيلة القرنين العاشر والحادي عشر ومستهل الثاني عشر للهجرة (الخامس عشر والسادس عشر

والربع الأول من القرن السابع عشر للميلاد)، فقد حدثت أهم الهجرات الأندلسية الجماعية سنوات : 1512، 1523، 1524، 1535، 1550، 1567، 1570، 1585، 1591، 1607، 1612، 1614[15]. هذا وقد كان لنزوح عامي 1570 و 1612 تأثير كبير على الوضع الديموغرافي والبنية الاجتماعية لمدينة الجزائر، فالنزوح الأول (1570) نتج عن فشل ثورة جبال البشارات (1570)، وقد أسفر عن ترحيل 000 30 شخص أغلبهم من نواحي غرناطة وأهالي منطقة بالميرا والنزوح الثاني أعقب قرار الطرد الجماعي وتم عن طريق السفن الاسبانية والمراكب الجزائرية التي أنزلت جموعا كثيرة من المهجرين بمرسى الجزائر يوم 23 فيفري 1612 م.

ولم يقتصر ترحيل الأندلسيين رأسا إلى الجزائر من اسبانيا، فقد سمحت مساعي السلطان العثماني أحمد الأول لدى ملك فرنسا هنري الرابع المعادي للاسبان والمتسامح مع غير الكاثوليك أن ينقل عددا كبيرا من مسلمي الأقاليم الشمالية والوسطى لاسبانيا (أقاليم استرامادور Extramadura والاراغون Aragon وألمانشا La Mancha) إلى الجزائر عبر الأراضي الفرنسية عن طريق مرسيليا وليفورن وآغد (Agde)[16].

أدت هذه الهجرات الأندلسية المتتابعة لمدينة الجزائر إلى ارتفاع السكان من 000 25 (1518 م) إلى 000 70 (1580 م) ليصل إلى ما بين 000 100 و 000 120 (1634 م) حسبما يستنتج من المصادر المعاصرة[17]، بحيث أصبح الأندلسيون يشكلون ربع سكان مدينة الجزائر في بداية القرن الحادي عشر الهجري (مستهل الرن السابع عشر)، فقد قدر الراهب الاسباني هايدو Haëdo عددهم عام 1609 م بما لا يقل عن 000 25 نسمة[18]، وهذا ما اضطر حكام الجزائر إلى تحويل قسم منهم إلى الأرياف المجاورة كما حدث عام 1512 م الذي عانى فيه السكان المجاعة ونقص الأقوات فحمّل متولي الشرطة بالمدينة مسؤولية ذلك الموريسكيين وأمر بطردهم من المدينة في ظرف ثلاثة أيام، ولم يتردد في قتل الأشخاص العاجزين على مغادرة المدينة في الوقت المحدد[19]، كما انجر عن تكاثر الأندلسيين بمدينة الجزائر تخصيص أماكن أخرى لاقامتهم غير بعيد عن الجزائر، فقد أقامت أسر أندلسية بزعامة سيدي أحمد الكبير في مدينة البليدة (942 هـ/1535 م) وأنشأت جماعات المدجنين القادمين من قشتالة وثغور بلنسية مدينة القليعة (957 هـ/1550 م)[20].

كما لم يمانع حكام الجزائر في تشجيع بعض الأندلسيين للعودة إلى وطنهم بهدف الجوسسة أو إثارة المسلمين ضد الحكم الاسباني، وهذا ما شجع على عمليات التسلل التي كان يقوم بها الأندلسيون إلى سواحل اسبانيا ليلا، فقد اعتادوا النزول على ساحل الأندلس الشرقي وإخفاء سفنهم الشراعية عند مصاب الأنهار، والتنكر في ملابس مسيحية ليسهل عليهم الاتصال بأقاربهم أو أصدقائهم ومساعدتهم على محاربة الاسبان. ومن الأمثلة الحية لمحاولات العودة إلى اسبانيا من طرف الموريسكيين ما ورد في إحدى وثائق الأرشيف الاسباني من أن أحد موريسكي المونيكار المدعو فلوى البواسن Luis Alboacen قفل راجعا

بعد مدة قضاها في الجزائر إلى بلنسية صحبة بعض أصدقائه الموريسكيين وحاول أن يثير انتفاضة ضد الحكم الاسباني فكانت نهايته الحكم بالاعدام حرقا سنة 1562[21].

وفي هذا الاطار من النشاط السري للأندلسيين سارع موريسكيو بلنسية إلى إخبار إخوانهم بالجزائر بالاستعداد الاسباني للقيام بحملة ضد الجزائر سنة 1601 م، فأرسلوا لهذا الغرض زورقا على طرف السرعة وعندما نجحت مساعيهم وفشل الهجوم لم يترددوا حسب الوثيقة الاسبانية التي أرودت هذا الخبر من إقامة حفلات رقص جماعية تعبيرا عن تضامنهم مع إخوانهم بالجزائر[22].

هذا ويمكن التعرف على التأثير الأندلسي وتحديد مجال المساهمة الأندلسية في مختلف مظاهر الحياة بمدينة الجزائر من خلال النقاط التي تتصل بالدعم العسكري الأندلسي والخدمات الادارية التي قدموها لحكام الجزائر والنشاط الاقتصادي الذي قاموا به وأساليب العيش وطرق الحياة والتقاليد والعادات التي نقلوها للمجتمع الجزائري دون أن ننسى الاسهام الفكري والفني الذي تميزوا به خاصة.

1 ـ الدعم العسكري والتأطر الاداري لجهاز الحكم العثماني بالجزائر :

ساعد الأندلسيون على تدعيم الحكم العثماني بالجزائر، فقد مدوا يد المساعدة والعون للأخوين عروج وخير الدين بربروسة في صراعهم مع الاسبان، ووقفوا بجانبهما في نزاعهما مع بقايا الادارة الحفصية والزيانية وناصروهما ضد الزعماء المحليين مثل سالم التومي شيخ الجزائر الذي أنهى عداءه لعروج بقتله (1516 م) وأحمد بن القاضي امير كوكو (القبائلي) الذي احتل مدينة الجزائر فترة قبل أن يلقى مصرعه في مواجهة بين قوات خير الدين وأنصاره من قبائل زواوة (1525 م).

وقد كان أندلسيو الجزائر يعتبرون خير الدين بربروسة بطلا منقذا، ورأوا في غاراته على سواحل اسبانيا انتقاما لهم، وقد عبروا عن ذلك في رسالة توجه بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني (948 هـ/1641 م) بقولهم : « كان بجوارنا المجاهد في سبيل الله خير الدين فاستغثنا به، فأغاثنا، وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الاسلام »[23].

اتخذ حكام الجزائر منذ عهد خير الدين من الأندلسيين جنودا لحراسة أبراج مدينة الجزائر وألفوا منهم فرقا عسكرية شاركت في توطيد الحكم العثماني في الأقاليم الداخلية للجزائر. فقد شارك 500 أندلسي من أهالي غرناطة والآراغون وبلنسية في الحملة التي شنها خير الدين للقضاء على حميد العبد حليف الاسـ والمستبد بتنس ونواحيها (1517 م)[24]، وكلفت جماعات من الأندلسيين بحراسة مدينة المدية بعد أن تمكن خير الدين من تنحية حاكمها محمد بن العابد وإلحاقها بالسلطة المركزية بمدينة الجزائر

(1517 م)[25]، وأثناء ثورة الشيخ بوطريق بإقليم الجزائر شكل الأندلسيون فرقة مؤلفة من 500 من الرماة انتمت إلى قوات حاكم مليانة حسن على عهد حسن بن خير الدين (1544 م)، المكلف بالقضاء على هذه الثورة[26]، كما انضم الأندلسيون إلى الحملة التركية التي أرسلها حاكم الجزائر رمضان باشا إلى المغرب بأمر من السلطان العثماني، والتي سمحت لعبد الملك أن يلحق الهزيمة بابن أخيه المتوكل ويتولى العرش السعدي[27].

هذا ومع تزايد عدد الأندلسيين تأكدت مساهمتهم في الدفاع عن مدينة الجزائر، فقد منهم عدد كبير قدر بـ 5000 شخص أثناء تعرض الجزائر لحملة شارلكان 1541 م[28]، وفي رسالة الملك الاسباني فيليب الثاني لسفير فرنسا فورك فو Fourque Youls[28] بتاريخ 6 جويلية 1566 فإن عدد الأندلسيين المجندين بلغ 6000 فرد من مجموع قوة الجزائر العسكرية المقدرة بـ 15 000 رجل[29].

أما المنشآت العسكرية بمدينة الجزائر فقد كان للأندلسيين مشاركة فعلية فيها، إذ بنوا خارج باب الوادي غرب مدينة الجزائر برجا (حصن الأندلس)، وأقاموا بطاررية بأعلى المدينة مزودة بـ 14 مدفعا، عرفت بطبانة الأندلس (1552 م)، وغير بعيد عنها خارج الباب الجديد شيدوا قلعة عسكرية (حصن الثغريين)، وداخل المدينة هيؤوا مخازن لتحضير البارود وحفظ العتاد عرفت بدار البارود الأندلسية (اندلوس طوفانوسي Andulus Tophanesi) يعود تاريخها إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي.

كل هذه الخدمات العسكرية أهلت الأندلسيين أن يتولوا المناصب الادارية والخدمات الاجتماعية والثقافية، وهذا ما عرضهم لمنافسة جماعة البلدية (الحضر) وجر عليهم نقمة بعض العناصر التركية الحاكمة، وقد تشكى من هذا السلوك الأندلسيون إلى السلطان العثماني سليم الثاني، وكانت شكاياهم موضوع قرارات (فرمانات) أكدت لهم حقوقهم وأقرت لهم امتيازاتهم، ففي فرمان صادر بتاريخ 27 رجب 981 هـ/23 نوفمبر 1573 م، أمر السلطان حاكم الجزائر بإرجاع ما أخذ من أمتعة الأندلسيين وإعفائهم من الجباية لمدة ثلاث سنوات مع البحث عن المتسببين في المعاملة السيئة التي ألحقت بمهاجري ثورة البشارات (1568-1570 م) واضطرتهم إلى دفع نفقات نقلهم إلى الجزائر ولو بأخذ أمتعتهم مقابل نفقات السفر[30].

2 ـ النشاط الاقتصادي لأندلسي مدينة الجزائر :

اشتغل أندلسيو مدينة الجزائر في الأعمال التجارية والحرف اليدوية وتفوقوا في الصنائع التي تتطلب المهارة والاتقان، فانتشرت حوانيتهم ومشاغلهم في أرجاء مدينة الجزائر، وكان أغلبها بالشارع الرئيسي للمدينة الممتد من باب عزون إلى باب الوادي والمنفتح على حومة الأسواق الرئيسية بالقسم الأسفل من المدينة.

وأهم الصناعات التي عرف بها الأندلسيون في مدينة الجزائر هي صناعة النسيج بمختلف أصنافها (أقمشة الكتان والقطن والحرير والمخمل "القطيفة")، وقد كان يعمل بها في الربع الأول من القرن السادس عشر ما لا يقل عن 3000 صانع[31]، ولا تقل عن هذه الصناعة أهمية أعمال التطريز (الشبيكة) والقلانس (الشاشية) وصناعة الحلي (أسورة وخلاخل وأقراط ومشرفيات) وتجهيز السفن وصناعة الأسلحة (بنادق وبارود) ومعالجة الجلود والخشب وتشكيل الآجر والقرميد والخزف (الزليج) وتحضير الصابون وتقطير ماء الورد واللارنج.

كانت للأندلسيين مشاركة في النشاط البحري لمدينة الجزائر، فتحصلوا على الأسرى والغنائم، واشتهر منهم بحارة (رياس بحر) عديدون منهم بلانكيو وأحمد بو علي الاشبوني ومراد الكبير من أهالي قويداد ريال[32]. ومما يؤكد دور الأندلسيين في الأعمال البحرية أن المعاهدة الفرنسية الجزائرية لعام 1640 م خصت السفن الأندلسية بالذكر عندما حددت في البند العاشر مسؤولية ما يلحق بالمراكب الفرنسية من خسائر جراء تعرضها للسفن الجزائرية[33].

لم يقتصر النشاط الاقتصادي الأندلسي على الجانب الحرفي والتبادل التجاري بل شمل الزراعة بجهات الجزائر (سهل متيجة ومرتفعات الساحل)، حيث استصلحوا الأراضي واستخرجوا الماء ونظموا الرعي بفحوص : باب الوادي بواسطة مياه المغاسل، وفحوص باب عزون باستغلال مياه الحامة وواد خنيس ووادي الحرا) فبنوا الأحواض والصهاريج والسواقي والقنوات والحنايا والنوريات (الناعورات) وحفروا الآبار، وأنشأوا العيون، وكانت من أهمها عيون : الحامة التي بناها أوسطى موسى، أحد الصناع الأندلسيين على عهد قوصة مصطفى حاكم الجزائر (1610-1613 م)[34].

على أن أهم إسهام للأندلسيي مدينة الجزائر يتمثل في تلك التقنيات الزراعية المتطورة التي أدخلوها إلى الجزائر، من حيث آلات العمل الفلاحي وطرق التلقيم والتلقيح وتحسين أنواع عديدة من الأشجار المثمرة كالعنب والبرتقال والزيتون والتفاح والجوز واللوز والمشمش، وإدخال أنواع جديدة من الخضر والفواكه لم يألفها السكان قبلهم مثل حب الملوك (الكرز) واللارنج والقرنون والكراث والجلبان والملفوف والباذنجان والطماطم والبطاطس والفلفل وأنواع الزهور والقرمز[35].

بمثل هذه الأعمال الحرفية والتجارية والزراعية، شكل الأندلسيون أساس اقتصاد مدينة الجزائر، فعرف سكانها سعة الرزق ورخاء المعيشة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهذا ما جعل سيور دو لاكروا (Sieur de la Croix) يؤكد على أن 2000 موريسكي (أندلسي) هم سبب في جعل مدينة الجزائر غنية بمشاغل الحرير والقطيفة وغيرها[36].

3 ـ تطوير أساليب العيش :

كان الأندلسيون في مدينة الجزائر يؤلفون شريحة اجتماعية تميزت عن غيرها بكونها أرقى حضارة وأرق معاملة وألطف سلوكا، فأثروا في أسلوب المعيشة وطريقة المعاملة فتأثرت بهم جماعة الحضر « البلدية » وطائفة الأتراك والكراغلة في المسكن والملبس والمأكل(37)، فأصبح المنزل الأندلسي هو الغالب في هندسة البناء، بحيث أصبحت أغلب الدور تتألف من فناء تنفتح عليه الغرف وتتوسطه عين ماء أو بئر وبه بعض الأشجار ويغطيه القرميد بالفحوص وتعلوه السطوح المطلة على البحر وداخل المدينة. ولا تخلو من الخزف (الزليج) الملون والمجصصات ذات التخاريم والأشكال اللطيفة إذا كان البناء مؤسسة تعليمية أو دينية أو منزلا لاحدى الأسر الغنية.

أما من حيث الملبس، فقد طغى الطراز الأندلسي على الملابس التقليدية فاستعمل التطريز خاصة في ملابس النساء، وشاعت أصناف أندلسية صرفة تميزت بجودة قماشها وإتقان صناعتها مثل الصدرية والقفطان والقميصة والطوق والفستان والجابادولي والقندورة والمحيرمة والكشمير والفريملة والصارمة والبنيقة والقرباطة. ومن حيث المأكولات عرف المطبخ الجزائري تنوعا من حيث نوعية الأكل وطريقة الطهي لا سيما ما يتصل بالحلويات والأطباق (الطواجين).

هذا ولم يقتصر التأثير الأندلسي على المظهر المادي للحياة اليومية في مدينة الجزائر، بل تعداه إلى الجانب اللغوي والمظهر الأدبي، فانحصرت اللهجة المحلية ذات الطابع البدوي الخشن في الطبقة الفقيرة (البرانية)، وانعزلت لغة الفرانكا المكونة من خليط من لغات البحر المتوسط في أواسط البحارة، بينما قلدت طبقة الحضر اللهجة الأندلسية الرقيقة المخارج والغنية بالمفردات والتعابير، والتي هي تعبير صادق عن رقة الذوق ورفاهية العيش لهذه الطبقة الموسرة.

4 ـ التأثير على البنية الاجتماعية لمدينة الجزائر :

ظل الأندلسيون بمدينة الجزائر لفترة طويلة يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة، فلم يختلطوا بغيرهم من السكان، وقد عزز هذا الشعور تشبثهم بأصولهم واعتدادهم بنسبهم، فتحفظوا في علاقاتهم حتى مع الحكام ولم يقبلوا على المصاهرة حتى مع الأسر العريقة، وهذا ما جعلهم شريحة اجتماعية متماسكة، يحتكر أفرادها أغلب المناصب الادارية والوظائف الاجتماعية المهمة التي لم يشغلها الأتراك بمدينة الجزائر، وقد كانت لهذه الجماعة حظوة ومكانة لدى الحكام وتعامل خاص مع التجار الأوروبيين والمتعاملينخ اليهود الذين قدموا من الأندلس أو المدن الايطالية. وقد اشتهرت من هذه الطبقة الميسورة عدة أسر توارثت الثروة والنفوذ، واشتغل أفرادها بالتجارة والصنائع مثل : ابن رامول، وابن هني،

وابن النيقرو، وبرزوان، وبرحال، وبوناتيرو، وبن تشيكو، وبن الكبابطي، وبوضربة، وابن الشاهد، وابن الأمين، وابن عمار، وخوجة، والزهار، والآبلي، وشلاسة، والعنجدون، وغيرها.

ومما ساعد على تكاتف الجماعة الأندلسية بمدينة الجزائر، وأبقى على وضعها الاجتماعي المميز، الميل إلى التكتل والتناصر الذي عرفت به الأسر الأندلسية، وروح المبادرة والحيوية التي طبعت أفرادها، وهذا ما دفع الأندلسيين إلى تخصيص أوقات للانفاق على المحتاجين منهم، فأنشأ أعيان الأندلس بمدينة الجزائر مؤسسة للأوقاف خاصة بهم (980 هـ/1573 م) وأوكلوا التصرف فيها لموظف عرف « بوكيل الأندلس » (1018 هـ/ 1609 م)، وأنشأوا زاوية ومدرسة خاصة بهم، فتعددت أوقافهم وبلغت في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري (1224 هـ/1809 م) حسب سجلات الوقف، مائة واثنتين وأربعين (142) وقفا منها ثلاثة وسبعون وقفا مشتركا مع غيرهم[38].

5 ـ ترقية الحياة الثقافية والفنية بمدينة الجزائر :

عرفت مدينة الجزائر نشاطا علميا وفنيا، ساهم بقسط كبير فيه الأندلسيون فقد شاركوا في التعليم بالمدارس التي اشتهرت منها مدرسة الأندلس، والقشاش، وكان لهم نصيب في فنون الأدب والثقافة لم يصل إلى مستوى أسلافهم من علماء بجاية ولكنه مكّن من المحافظة على التقاليد العلمية الأندلسية، وضمن استمرار توارث المعارف الفقهية واللغوية عن طريق دراسة المتون والشروح والحواشي، بل أبقى الأساليب الأدبية الأندلسية حية، فأصبح الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب مثالا يحتذى به في طرق السجع والمحسنات البديعية الموزونة، كما تؤكده كتابات ابن عمار وابن حمادوش وابن ميمون وغيرهم[39]، يضاف إلى ذلك أن العديد من الأندلسيين تولوا الوظيف الديني. وكان منهم القضاة والأئمة والخطباء والنظار والوكلاء، واشتهر منهم خاصة في مجال القضاء ابن النيقرو وابن الأمين وابن عمار وابن الكبابطي، أما في ميدان الفن، فكان إسهامهم كبيرا وكادوا ينفردون بتنشيط الحياة الفنية، فقد نقلوا إلى الوسط الجزائري الموشحات والأزجال الأندلسية (المالوف)، وأدخلوا الآلات الموسيقية الأندلسية، وحافظوا عليها مثل العود والرباب والكامنجة والصنوج والطبيلة والطار والدربوكة وغيرها. وأحيوا المدائح النبوية (المولوديات) والاخوانيات وقصائد المدح والغزل ووصف الطبيعة، التي كانت تعزفها الأجواق الأندلسية في المواسم والأعياد والسهرات العائلية، ومن أشهر منظمي الموشحات ومروجيها أبو العباس أحمد بن عمار الأندلسي الجزائري، متولي إفتاء المالكية سنة (1180 هـ/1766 م)، ومؤلف « رحلة نحلة للبيت في الرحلة إلى الحبيب » و « لواء النصر »، ومحمد بن الشاهد الأندلسي الجزائري (ت 1207 هـ/1793 م)، وعمر بن محمد بن سيدي علي الأندلسي، متولي قضاء الحنفية سنة (1163 هـ/1750 م) وغيرهم من العلماء الذين جمعوا الثقافة الاسلامية والمعارف الفنية وتأثروا بموشحات ابن باجة وابن سهيل وأبو الصلت أمية ولسان الدين بن الخطيب[40].

بهذه النظرة العامة والتناول الاجمالي للهجرة الأندلسية للجزائر في طورها الأول الذي لعبت فيه بجاية دور الريادة والابداع الثقافي والفكري (القرنين 7 و 8 هـ/13 و 14 م)، وفي طورها الثاني الذي كان فيه لمدينة الجزائر إسهام متميز (القرنين 10-11 هـ/ 16-17 م)، يمكن لنا القول في ختام هذا العرض بأن الهجرة الأندلسية إلى الجزائر تعتبر عامل ازدهار اقتصادي وحيوية اجتماعية ونمو ديموغرافي وإثراء ثقافي ورقي حضاري، قبل أن تخبو جذوتها وتنطفىء شعلتها مع حلول القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) لظروف دولية ضاغطة وعوامل داخلية محبطة، نتجت أساسا عن استمرار الخطر الاسباني وحدوث انهيار ديموغرافي، واستبداد الحكام وإهمالهم رعاية الأدب والاعتناء بالاقتصاد، مما جعل الأندلسيين يفضلون الاندماج مع بقية السكان الذين وجدوا فيهم روح الأخوة والتسامح والتعاون بعد أن تعرضوا للابادة والتشتيت وهجروا من وطنهم قسرا ولم يعد لهم أمل في الرجوع إلى الفردوس المفقود.

الهوامش

(1) درارجة بلقاسم، التفاعل الثقافي بين المغرب الأوسط والأندلس من القرن الثامن إلى الرابع عشر الميلادي، دكتوراه، جامعة غرناطة، 1989 (باللغة الاسبانية) غير منشورة.

(2) البكري، أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، من كتاب المسالك والممالك، باريس، ادريان ميزونوف، 1965، ص 61 و 70.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر، بيروت، 1957، ج 6، ص 704-705.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن، التعريف (خاتمة كتاب العبر)، تحقيق ابن تاويت الطنجي، بيروت، 1957، ص 97-98.

(5) الغبريني، أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المابة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط 2، الجزائر، 1981، ص ص 107-108، 242-243.

(6) نفس المصدر، ص 247.

(7) أهم المصادر المعتمدة في حصر علماء الأندلس ببجاية هي :

- الغبريني، أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المابة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط 2، الجزائر، 1981.
- المقري، شهاب الدين أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن فرحون، ابراهيم بن علي، الديباج المذهب، القاهرة، 1329 هـ.
- ابن مريم، أبو عبد الله محمد المليانى، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق ابن أبي شنب، الجزائر، 1908.
- ابن القنفد القسنطيني، أبو العباس أحمد بن الخطيب، الوفيات، تحقيق هنري بيريس، القاهرة، 1939.
- التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون، القاهرة، 1351 هـ.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.
- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، 2 ج، الجزائر، 1909.

(8) حتاملة، محمد عبده، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني 1527-1598، عمان، 1982، ص ص 37-43 و 50-67.

- Braudel (F), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, Colin 1966, T II, pp. 364-367.

(9)
- Lapeyre (H), Géographie de l'Espagne morisque, Paris, S.E.V., PEN., 1959, pp 62 et 207 .
- Penella (J), Le transfert des Morisques espagnols en Afrique du Nord, in Etudes sur les Morisques andalous en Tunisie publiées par M. De Epalza et R. Petit, Tunis, 1973.

(10) المقري، نفس المصدر، ج 6، ص 280.

(11) سعيدوني، ناصر الدين، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة أوراق، مدريد، عدد 4، ص 111-118.

(12) مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تحقيق وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934، ص ص 48-82.

(13) عنان عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط 3، القاهرة، 1966، ص 386.
— Haëdo, Histoire des Rois d'Alger, Alger, 1881, p. 38.
— Devoulx (A.) Notice sur les corporations religieuses d'Alger, Alger, 1912, p. 72.

(14) - سي يوسف، محمد، علج علي باشا باي لارباي الجزائر، أطروحة غير مطبوعة، الجزائر، 1988.
- عنان، عبد الله، نفس المصدر.

(15) — Sieur de la Croix, Relations universelles d'Afrique, ancienne et moderne, Lyon, S.D., T II, pp. 56 et 74.
— Trumelet (C.) Les Saints de l'Islam, Paris, 1881, P XXVIII.

(16) - الحجري الأندلسي، أحمد بن القاسم، ناصر الدين على القوم للكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987، ص 49.
- ابن حفري، شكيب، موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر 1571-1578، بحث غير مطبوع، مقدم في المؤتمر الدولي للدراسات الموريسكية، زغوان، 1992، ص 10.

(17) — Dan (Le P.) Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Paris, 1637, p. 89.
— Dapper (D'O) Description de L'Afrique, Amsterdam, 1686, p. 177.
— Savary (J.) Le parfait négociant, Paris, 7e ed., 1712, p. 359.
— Sieur de la Croix, op. cit., T II, p. 71.
— Lespees (R.) Les Variations de la population d'Alger avant 1830, in Revue de l'Armée de l'Afrique N° 1, 2 année, 1925, pp. 26-30.

(18) — Haëdo, op. cit.

(19) رزوق، محمد، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، الدار البيضاء، 1989، ص 132.

(20) — Davity (P.) Description générale de l'Afrique, Paris, 1660, p. 184.
— Sanson (N d'Abbeville), L'Afrique en plusieurs cartes naturelles, Paris, 1655.
— Description géographique et Historique des Royaumes et provinces qui composent l'empire des Cherifs, Paris, 1733, T II, pp. 148-149.
— Anonyme, Blida par un de ses enfants, Blida, 1876.

(21) كارداياك، لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية (1492-1640)، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، 1983، ص 86. اعتمادا على وثائق الأرشيف الوطني الاسباني.

(22) نفس المصدر، ص 84.

(23) التميمي، عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، المجلة التاريخية المغربية، عدد 1975/3، ص ص 45-46.

(24) — Haëdo (Diego de), Topographia e historia général de Argel Valladalid 1612, pp. 219-220.

(25) — Federman (H.); Sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titeri, in Revue Africaine, N° 9, / 1865, p. 281.

(26) — Berbrugger (A.); El Hadj Pachi, in Revue Africaine, N° 64, 1864, p. 295.

(27) — Ilter (Aziz) Samih Simali Afrika'da Turkler, Istambul, 1936, pp. 157-158.

(28) — Marmol Carvajal (Luis de), Description général de Africa, Granada, 1573, T II, p. 11.

(29) — Garcia (Arenal), Merredes los Moriscos ed. national, Madrid, 1975, pp. 177-178.

(30) ابن حفري، نفس المصدر، عن أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، مهمة دفتري (51، حكم 234 تاريخ 4 صفر 979 هـ/1571 م) و (23، حكم 244 تاريخ 19 رجب 981 هـ/14 نوفمبر 1573 م) و (23، حكم 284 تاريخ 27 رجب 981 هـ/23 نوفمبر 1573 م).

(31) — Haëdo, op. cit.

(32) عنان، عبد الله، نفس المصدر، ص 388.

(33) قنان، جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1618-1830، الجزائر، 1987، ص 266.

(34) — Dan (P.), op. cit., p. 91.

(35) سعيدوني، ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحث مقدم في الندوة الخامسة للدراسات الموريسكية بسان كارلو دولارابطة، حراقونة، اسبانيا، 4-9 ديسمبر 1990.

(36) — Sieur de la Croix, op. cit., T II, P. 56.

(37) راجع سعيدوني، ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون... (راجع فقرات الحياة الاجتماعية).

(38) سعيدوني، ناصر الدين، أوقاف الأندلسيين بالجزائر من خلال وثائق الأرشيف الجزائري، بحث مقدم في الندوة الثالثة للجنة العالمية للدراسات الموريسكيون، تونس، 1983.

(39) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (ق 16-20م)، الجزء الأول، الجزائر، 1981.

(40) راجع سعيدوني، ناصر الدين، الأندلسيون الموريسكيون... (فقرات دور الأندلسيين في الحياة الثقافية والفنية).